طبيعي لا طباعي ولا طبعي

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

لما بدأ العربيون منذ أكثر من ألف سنة يؤلفون وينقلون علوم الأمم واحتاجوا إلى النسبة إلى الطبيعة — قالوا : (الطبيعي) وقد شذ هذا النسب كما شذ النسب إلى السليقة[1] . ولم يخطئ القوم في نسبتهم هذه أحد . وجاء (الطبيعي) في كلام الأديب واللغوي كما جاء في حديث المتكلم والفيلسوف . وإذا نسب أبو حيان في (المقابسات) إلى (الطباع) كما ذكر العالم الباحث الأديب الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدي — فما أكثر نسبته إلى الطبيعة ، ففي (مقابساته) في ص ٣٣٣ : « فإنه ليس من معاول طبيعي ولا صناعي تنقطع عنه علته إلا فسد وباد » وفي المناظرة بين السيرافي والقنائي التي دبجتها براعته وبراعته : « فكيف يجوز أن يكون ها هنا شيء يرتفع به الاختلاف الطبيعي والتفاوت الأصلي » « وإنما الخلاف بين اللفظ والمعنى أن اللفظ طبيعي والمعنى عقلي » .

فالنسبة إلى الطبيعة هي النسبة المتقبلة المستجادة . وكافيك أن نابغة العرب واللغة والأدب أبو العلاء يقول في إحدى رسائله[2] : « ولا يقل سيدي أدام الله عزه قد قصرت الشعراء قديمها ومولدها ، وأولها السالف وآخرها ، وفصيحها الطبيعي ومتكلفها ، فإنه لو استعمل ضرورة غير تلك لقبلت حجته ... » وأن اللغوي العظيم ابن سيده[3] يقول في مقدمة مخصصه : « ... وإن أرادوا تسمية جزء منه أشاروا إلى ذلك الجزء فقالوا : عين أنف فم ونحو ذلك من أجزائه التي تتحلل جملته إليها ، وتتركب عنها . فمتى سمعت اللفظة من هذه كلها علم معناها وصارت له كالسمة المميزة للموسوم ، والرسم المحتاز لما تحته من الرسوم ، وكالحد المميز لما تحته من المحدود ، وإن كانت تلك الإبانة طبيعية وهذه تواضعية غير طبيعية » « فإذ قد بيّنا ما اللغة أمتواطأ عليها أم موحى بها وملهم إليها فلنقل على حدها لأن الحد طبيعي ... » .

فهذان الأمامان الحجتان ينسبان إلى (الطبيعة) ويقولان (الطبيعي) فمن وجدناه اليوم قد نسب إلى (الطباع) لم نستنكر نسبته ولم نلمه غير أنا نردد هذا المثل : « امرأ وما اختار ... » ومن آلم آذاننا وعيوننا ب (الطبعي) و (البدهي) عوذ بالله ، عوذ بالله ! — وقد استمرت العربية تقول : (الطبيعي والبديهي[1]) ألف حول غلطناه ورأيناه كمن يقول (السلقي) في النسبة إلى (السليقة) .

وما اختار الأئمة الذي اختاروه وآثروا شاذاً على مطرد أو منقاس عن جهل أو غفلة ، ولكن هو ذوقهم العالي الفائق ، وحسهم الدقيق اليقظ ، قادهم إلى التي هي أحسن والتي هي أقوم . وفي (استحوذ — في الكتاب — واستحاذ) حجة الشاذ .

وبعد فلهذه (الطباع) التي هاجها بعد السكون وبعد طول الزمن العلي بخلقه وبعلمه وبفضلة الأستاذ عبد المتعال قصة طويلة . وإنها لحقيقة بالرواية في (الرسالة) وهذه قصتها مختصرة :

أبو علي الفارسي يقول : الطبع مصدر ثم كثر فسمي به الطباع .

وأبو القاسم الزجاجي يقول : الطباع واحد مذكر كالنحاس والنجار .

وابن الأثير صاحب النهاية يقول : هو اسم مؤنث على فعال نحو مهاد ومثال .

---

(١) في (المخصص) : « النسب إلى السليقة سليقي وهو مما شذ فيه حرف اللين الزائد

(٢) في رسالته إلى أبي الحسين أحمد بن عثمان الكاتب البصري ص ١٢٣

(٣) بفتح الدال وسدها هاء ساكنة .

(١) في (الكليات) : « البديهي أخص من الضروري لأن البديهي ما لا يتوقف حصوله على نظر وكسب .. والأوليات هي البديهيات بعينها ... » وفي (التعريفات) : « البديهي هو الذي لا يتوقف حصوله على نظر وكسب » وفي (اليتيمة) : « علي بن محمد البديهي . سمعت أبا بكر الخوارزمي يقول وقد جرى ذكره بين يديه أنه كان لا يرجع من البديهة التي انتسب إليها ونقب بها إلا إلى لفظ الدعوي دون حقيقة المعنى وفي ذلك يقول له الصاحب :

تقول الشعر في خمسين عاما فلم تلبث ثمانين بالبديهي

قلت : ولو لم يستصوب أبو بكر هذه النسبة لقال : ولقبه خطأ فالنسبة إلى فعيلة فعلي وأبو بكر هو ما هو !

وابن سيدَه في (مخصصه) يقول : طباع الإنسان يذكر ويؤنث ، والتأنيث فيه أكثر[1] ، وهو واحد مثل النجار إلا أن النجار مذكر .

وأبو حاتم — كما ذكر المخصص — يقول : الطباع مذكر لا غير إلا أن تُتَوهم الطبيعة .

والأزهري صاحب التهذيب يقول — كما نقل اللسان والتاج — يجمع طبع الإنسان طباعاً .

والأزهري أو غيره يقول — كما نقل اللسان والتاج — : الطباع واحد طباع الإنسان على فعال .

قلت : فهو عنده كهجان وهجان ودلاص ودلاص .

وصاحب (شفاء الغليل) يقول مورداً نقد ابن قتيبة وتعقب البطليوسي : طباع واحد مذكر كالطبع ومن أنثه ذهب إلى معنى الطبيعة . وقد جوّز أن يكون جمع طبع ككلب وكلاب قال ابن السِّيد في شرح أدب الكتاب فليس خطأ كما توهم .

والمجد يقول في (قاموسه) : الطبع والطبيعة والطباع ككتاب السجية جبل عليها الإنسان ، أو الطباع ككتاب ما ركب فينا من المطعم والمشرب وغير ذلك من الأخلاق التي لا تزايلنا .

وأبو عبد الله محمد بن الطيب[2] يقول في (شرحه القاموس) ناقداً المجد : ظاهره بل صريحه كالصحاح أن الطباع مفرد كالطبع والطبيعة وبه قال بعض من لا تحقيق عنده تقليداً لمثل المصنف ، والمشهور الذي عليه الجمهور أن الطباع جمع طبع .

والزبيدي صاحب التاج يقول رداً على شيخه : قول شيخنا ظاهره الخ ... يتعجب من غرابته ومخالفته لنقول الأئمة . وليت شعري من المراد بالجمهور ، هل هم إلا أئمة اللغة ، فهؤلاء كلهم نقلوا في كتبهم أن الطِّباع مفرد ، ولا يمنع هذا أن يكون جمعاً للطبع من وجه آخر كما يدل عليه نص الأزهري . وأرى شيخنا (رحمه الله تعالى) لم يراجع أمهات اللغة في هذا الموضع . سامحه الله تعالى وعفا عنا وعنه ، وهذا أحد المزالق في شرحه فتأمل .

وشيخنا أبو العلاء حكمه في (الطباع) بيّن في هذين البيتين :

طباع الورى فيها التفاوت فأقصم ... وحيداً ولا تصحب خليلاً تنافقه

هذي طباع الناس معروفة فخالطوا العالم أو فارقوا

ووجدت الطباع مجموعة — كما يظهر — في هذا الحديث العظيم في هذا « الدرس » في أدب النفس ، وهو خير ما يختم به هذا البحث ، وهو في (الطبقات الكبرى) لابن سعد :

قال مُعاذ بن سعيد : كنا عند عطاء بن أبي رباح فحدث رجل بحديث ، فاعترضه رجل ، فغضب عطاء ؛ وقال : ما هذه الأخلاق ؟ ما هذه الطباع ؟ والله إن الرجل ليحدث بالحديث لأنا أعلم به منه ، ولعسى أن يكون سمعه مني ، فأنصت إليه ، وأريه كأني لم أسمعه قبل ذلك .

هذه حكاية (الطباع) الذي أو التي أو اللواتي جاء الأستاذ عبد المتعال — أدام الله نفعنا بفضله — يهيجها ويهيجنا من أجلها ...

(١) وقول في المحكم كما نقل التاج : الطباع مؤنثة كالطبيعة .

(٢) قال صاحب التاج في شرحه مقدمة القاموس : ومن أجمع ما كتب عليه (على القاموس) مما سمعت ورأيت شرح شيخنا الامام الفتوى أبي عبد الله محمد بن الطيب بن محمد القاسمي المتوفى بفاس سنة (١١١٠) والمتوفى بالمدينة المنورة سنة (١١٧٠) وهو عمدتي في هذا الفن ، ولقد جيدي يحلى تقديره المستحسن . وشرحه هذا عندي في مجلدين ضخمين.

إدارة البلديات — مخابرات

تطرح بلدية المحلة الكبرى مزايدة بيع سيارتي نقل ماركة شيفورليه وتقبل المطاءات بالبلدية المذكورة لغاية ظهر ١٩ / ٧ / ٤٥ وتطلب الشروط منها مجاناً .

٣٧٠٨